راهن الأدب المقارن في الجزائر، الصّورائية والتيماتولوجيا

Comparative literature in Algeria, pictorial and tymatology

ميلود سي الطيب[1] *، سعيد المكروم[2]،
[1] جامعة مستغانم (الجزائر)، sitayebmiloud7@ gmail.com
[2] جامعة مستغانم (الجزائر)، said201040@hotmail.com
Miloud Sitayeb [1] *, Said Elmekroum [2]
[1] University of Mostaganem (Algeria)
[2] University of Mostaganem (Algeria)

تاريخ الاستلام:2022/05/04 تاريخ القبول:2023/12/23 تاريخ النشر:2024/04/30

ملخص:

الأدب المقارن هو دراسة أدبين قوميين أو أكثر ،من حيث نقاط التأثير والتأثّر التي حدثت بينها ،وكذا انتقال الآداب والثّقافات بين البلدان وعبر الأزمنة ،وقد حدث هذا وفق مجموعة من المناهج التي عملت على حفظ تلك الآداب واستمرارها ،كما وسّعت في بعضها الآخر ،ومنها :التأثّر والتأثير ،الاستشراق،الترجمة، الصّورائية ،الموضوعاتية ..

أمّا المناهج الثّلاثة الأولى فلم يحدث لها أيّ جديد يذكر ،ما عدا بعض المحاولات المتناثرة هنا وهناك، وكانت ولا زالت أكثر الاهتمامات منصبّة على مجال الصّورائية التي اهتمت بدراسة صورة الشّعوب في أدب بعضها البعض ،وعلى الموضوعاتية وهي تحوّل بعض العوالم والمعالم إلى مواضيع في الآداب القومية المختلفة ،فتعدّدت الدّراسات الأكاديمية على منوال هذين المنهجين.

كان هذا راهن الأدب المقارن في الجزائر من خلال الدّراسات التي ناقشها الباحث الجزائري ،كدراسة صورة فرنسا في الأدب الجزائري ،أو دراسة صورة الصّحراء الجزائرية في الأدب الأجنبي ،واعتبار الأمير عبد القادر موضوعا في الأدب الغربي ،أو جميلة بوحيرد ،أو العربي بن مهيدي ..فقد كان الاتّفاق في هذه المناهج عبر المفهوم التي كانت عليه، أمّا الاختلاف ففي المضامين ،والتي جعلت من الدّراسات تستمر وتكثر في هذا الإطار.

الكلمات المفتاحية:الأدب المقارن،المناهج،الصّورائية ،التيماتولوجيا.

Abstract:

Comparative literature is the study of two or more different national literature in terms of the points of influence that occurred between them as well as the transmission of literature and cultures between countries throughout time, and this occurred according to a set of approaches that worked to preserve and sustain those literature. it has also expanded in others, including influence, Pictorial and objective.

The first three approaches did not happen in anything new except some attempts which were and still are the most focused on the field of photography that was interested in the

* **ميلود سي الطيب .**

study of people in each other's literature and on thematic, which turns some factors and features into topics in different national literatures.

This was the reality of comparative literature in Algeria through studies discussed by the Algerian researcher, such as studying the image of France in Algerian Sahara in foreign literature, the agreement in these approaches was through the concept it was, but the difference in the contents that made the studies continue and abound in this context.

Keywords:comparative littérature, curriculum, pictorial, timalogy .

مقدمة:

استطاع الأدب المقارن أن يخرج إلى الوجود عبر تلك الآداب التي كتب لها الاستمرار من بعضها البعض ،كما حدث ذلك بين الأدبين الرّوماني واليوناني ،وبين الآداب الغربية والأدب العربي والعكس،وبين الفلسفة العربية واليونانية .وبعد أن تشعبت المعرفة وكتب لها التوسّع ،انبثقت مجموعة من المناهج عن الأدب المقارن كان أبرزها:المنهج الصّورائي والمنهج الموضوعاتي.فالبيئة العربية على العموم والجزائر على الخصوص بدأت الدّراسات المقارنة فيها بفعل هذين المجالين ،كما أنّ الدّراسات الحديثة في الأدب المقارن في الجزائر كانت ضمنهما،فقد كتب الدكتور عبد المجيد حنون "صورة الفرنسي في الرّواية المغاربية"،وكتب بومدين جيلالي"النّقد المقارن في الوطن العربي"...وجاءت بعدهما الكثير من البحوث ،كان منها:"واقع الدّراسات المقارنة في المغرب العربي"لـ صغور أحلام، وكتبت عالية زروقي "صورة الآخر في الرّواية الجزائرية"..

إنّ حاضر الأدب المقارن في الجزائر كان ضمن هذه المناهج الجديدة ،فكيف تناول الباحث الجزائري هذه المناهج؟ إلى أيّ مدى وصل التطبيق في الصورائية والموضوعاتية؟

1. الأدب المقارن :المفهوم والتاريخ

1.1ـ المفهوم:

اتُّخِذ من الأدب المقارَن ميدانا لتلاقح الآداب والتقائها عبر القوميات المختلفة ،أي خارج إطار اللغة واللسان الواحد ،عبر حدود تتجاوز الحيّز الواحد«فالأدب المقارن ،إذن يرسم سير الآداب في علاقاتها ببعضها البعض، ويشرح خطّة ذلك السّير ،ويساعد على إذكاء الحيوية بينها ،ويهدي إلى تفاهم الشّعوب وتقاربها في ثرائها الفكري ،ثمّ هو ـ بعد كلّ هذا يساعد على خروج الآداب القومية من عزلتها»(محمّد غنيمي هلال، 2008، صفحة،20) ،فكان هذا الهدف الأسمى الذي من خلاله أصبح العالم قريبا بفعل هذا الانفتاح وتلك الحرية التي منحها الأدب المقارن على خلاف باقي التخصصات والآداب الأخرى .

عمَد الدارسون إلى توسيع رقعة المقارنات بين الآداب في إطارها التأثيري التأثّري الذي صاحب تلك الدراسات لعديد السنين ،فأصبح للأدب المقارن مخارج أخرى يصل من خلالها إلى اتّساع دائرة المعرفة والعلم ،وهو ما حدث حين أصبح للعلوم الإنسانية الأخرى علاقة مع الأدب المقارن«بعد الاتّصالات الإنسانية والفكرية ،واللقاءات ،والاتّصالات المادية ،والرّحلات سيدرس المقارن العلاقات ،خاصة الأدبية منها: الترجمات والآداب في الترجمة»(دانييل هنري باجو،1997،صفحة 63)

فلم يستثن الأدب المقارن التاريخ وما تعلق به، ولا الفلسفة ولا علم الاجتماع ولا علم النّفس ..وامتدّ هذا إلى الفنون من رسم ونحت وموسيقى ،فأصبحت العالمية حلّة تكتسيها المقارنات ،ليس ما تعلّق فيها بالحيّز المكاني أو الزّماني ،إنّما في تشعّب الدراسات وملامستها لجميع العلوم والتخصّصات«وهذا الاختلاف في الوسائل الفنّية هو السبب في أنّ الدّراسات الفنية البينية ضرورية للأدب المقارن ، والتفكير في طبيعة التقليد يسمح لنا بفهم سبب عدم اقتصار هدف الأدب المقارن في الدّراسة على مقارنة الآداب المكتوبة بلغات مختلفة ،بل مقارنة الفنون المفهومة وفق الوسائل المختلفة التي تستخدمها أيضا» (سيزر دومينيغيز. هاون سوزي . داريو فيلانويفا،2017، صفحة 179)، على هذا كان مفهوم الأدب المقارن مفهوما واسعا بعد أن بدأ ضيّقا ،واحتضن الكثير من الآداب والعلوم من مختلف القوميات.

2.1 ـ التاريخ:

كان الأدب المقارن حلقة وصل لبعض التخصصات التي كانت متباعدة ،ولم يكن ينفعها ذلك التباعد،إلى أن وثّق هو صلتها ببعضها ،فأصبح الدارس لا يجد من الصعوبة كي يواصل بحوثه في مجال الاتّصال بين الآداب والتخصصات الأخرى وحتى الفنون ،وهذا ما وُجِد مع عديد الدّراسات،التي اتّخذت من مناهج ومدارس الأدب المقارن سبيلا لتتبّع مختلف التطورات التي حدثت للعالم في مجال الكتابة ،ولا نستثن ما حدث مع العالم العربي في هذا الشّأن حيث شهد الحديث عن الأدب المقارن عدة تطوّرات عبر محطّات مختلفة ،كان أهمّها أعمال "غنيمي هلال "الذي أوصل هذا المنهج في بداياته إلى البيئة العربية حتى تلك المؤلفات التي صدرت بعد مغادرته الحياة ككتاب "في النّقد التطبيقي والمقارن"«ولعلّ كتابا من بين مؤلفاته المتعدّدة في مجالات الدّراسات النّقدية والمقارنة ،لا يطلعنا على حقيقة اتّجاهه النّقدي من خلال التطبيقات المباشرة كما يطلعنا هذا الكتاب الذي يضمّ فصولا ينصبّ معظمها على بعض النّماذج الجوهرية في مجالات الدّراسة المقارنة بين الأدب العربي من ناحية والآداب العالمية من ناحية أخرى» (محمّد غنيمي هلال ،صفحة 3)، فجمع الكِتَابُ ما جمع من دراسات حول الأدب العربي وغيره من الآداب ،علاقة الفلسفة بالسياسة ،نظرة إلى الأنظمة السّياسية ،النفس الإنسانية في الآداب المختلفة ...وغير ذلك ممّا له وجهة مقارنية تجعل المقارِن يقوم بفعل المقارنة على أكمل وجه .

أمّا في البيئة الجزائرية فإنّ الأدب المقارن كان في طريق واحد مع الانفتاح على الجامعة وقد كانت عملية الفهم والتجريب منصبة بصورة مباشرة على العلوم الإنسانية التي كانت بدورها انعكاسا لطبيعة الظروف التي وُجِد عليها الأدب ،وكذا ثقافة المجتمع الجزائري «لقد عرف الأدب المقارن بالمغرب العربي الاهتمام نفسه من قبل الجامعات المغاربية ،فمنذ بداياته ارتبط بالدّراسات الجامعية ،وتمّ اعتماده مقرّرا جامعيا بها ،مثلما هو الشّأن بالجزائر حيث تمّ اعتماده بالجامعات الجزائرية منذ العشرينيات» (صغور أحلام ،2008 ـ 2009،صفحة95)

وشهد الأدب المقارن تطوّرا سريعا بفضل الجهود التي حدثت من أبناء الجزائر داخل الوطن أو خارجه ،بداية من جمال الدّين بن الشّيخ إلى يومنا هذا ، وما كان ملفتا في مجهودات هؤلاء أنّها لم تترك جانبا من جوانب هذا الدّرس إلّا وطرقته ، وكان من بين ذلك "الاتّجاه السّوسيولوجي " في الأدب المقارن الذي كان يضمّ مختلف العلوم الإنسانية،وقد درسه "أبو العيد دودو" اعتمادا على كتاب "الأدب المقارن "لفارن تسيما"الذي«كان يدعو فيه إلى إقامة نظرية نقدية خاصّة بالأدب المقارن ،قائمة على محاولة الجمع بين المنهج الاجتماعي والتفكير الفلسفي

،بمعنى ربط الأدب بمناهج علم الدّلالة وعلم الاجتماع وعلم النّفس في علاقة كلّ منها بالجماليات الفلسفية» (صغور أحلام ،2008 ـ 2009،صفحة122)، إنّ هذا من بين المؤشرات التي جعلت الدّراسات المقارنة في الجزائر تلقى نجاحا باهرا ،إضافة إلى عدم اكتفاء الباحث المقارِن بالتطبيق على المناهج المقارنية المعروفة ،إنّما تجاوز ذلك إلى مناهج أخرى جديدة كالصورائية والموضوعاتية .

2 ـ مناهج ومضامين الأدب المقارن في الجزائر:

2ـ1ـ المنهج الصّورائي :

هو أحد المناهج التي تنتمي إلى الأدب المقارن ،يُعنَى بتصوير الأدب للشّعوب الأخرى « وهذا أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن ، لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من نحو ثلاثين عاما ، ولكنّه مع حداثة نشأته غنى بالبحوث التي تبشّر بأنّه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأثرها رواجا في المستقبل» (محمّد غنيمي هلال ،2008، ص331) ،فلم يكن من الصّدفة أن يعتلي هذا المجال سلّم المقارنات ليصبح أبرزها على الإطلاق فمعظم الشّعوب رأت في دورانها حول قومياتها زيادة في التخلّف، ووجدت أنّه لا بد من البحث في عمق الآخر وقراءته ، ليتسنى لها أن تلقي بأدبها أيضا الذي سيترك انطباع " الأنا " في أدب " الآخر" فيما بعد، فارتبطت الصورلوجيا ، أو ما يعرف بعلم الصّورة الأدبية بالأنا والآخر والرابط الموجود بينهما والذي ينسج خلال التأثير والتأثّر المتبادل بينهما «فهي تقتضي تفاعل طرفين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين (الأنا والآخر) ولا تتضح صورة الآخر إلّا من خلال طبيعة العلاقة التي تنسجها الأنا معه بطريقة إيجابية أو سلبية » (زهرة مزوني ،2016،ص77) ،فقد فرضت الظروف ذلك الالتقاء ،كما أجبر التاثّر " الأنا " من أن يصوّر مختلف ما قرأه أو رآه في الـ" هناك " وينقله في طبيعته إلى الـ " هنا " .

اكتست الصورية مفهوما عالميا بعد أن توسّع نطاقها ، وأصبحت شكلا مهما يعتمد عليه في الر بط بين القوميات المختلفة ، فذهب انغلاق" آخَر" ألمانيا عن العالم بفعل "أنا " فرنسا ، وتوحّدت صورة إنجلترا في أوروبا ،كما تواصل المعسكر الشرقي والغربي دون وضع اعتبار لغالب أو مغلوب ، فأزالت الصورلوجيا حواجز دكتاتورية وخلقت شيئا من المساواة رغم بعض الرّفض، وكغيرها من دول العالم ساهم الدّارس المقارن في الجزائر في إثراء هذا المنهج ،بل وجعله المنطلق لأبحاثه، ومن أبرزهم ما قام به "أبو العيد دود "في دراسة صورة الجزائر عند المؤلفين الألمان ، ومختلف الترجمات التي جاءت في هذا السّياق وكلّلت بكتابه " الجزائر في مؤلفات الرّحالين الألمان 1830 ـ 1850" ففتح "دودو " للباحث الجزائري فرصة لما قام به الاستعمار الفرنسي في الجزائر من خلال رؤية الآخر الألماني فا «الكتابات الألمانية عن الجزائر والجزائريين كشفت بوضوح غطرسة الاستعمار الفرنسي ، وطيبة الجزائريين وبؤسهم ، ولا شكّ أن دراسات أدقّ وأعمق لهذه النّصوص الألمانية المترجمة وغير المترجمة ستكشف الكثير من الخبايا والحقائق التي عرفها أسلافنا وطبعت ذاكرتنا الجزائرية وخيالنا » (عبد المجيد حنون،2004،صفحة 169)، ولعلّ دراسة دود و في هذا الميدان نادرة من نوعها كونها صوّرت صورة " الأنا" في أدب " الآخر " ، أمّا في ما تعلّق بصورة " الآخر " في أدب " الأنا" ما قام به الدكتور " عبد المجيد حنون " من جهد ظهر في " صورة الفرنسي في روايات المغرب العربي ـ الجزائر تونس والمغرب " ، فالعمل الذي قام به الباحث كان أكثر نضجا وموسوعية كونه « دراسة متمكّنة تختلف عن سابقاتها في كونها أولت عنايتها إلى دراسة صورة " الآخر " في الأدب المغربي ، ذلك بانتقاء الباحث لمجموعة من الرّوايات المغاربية المكتوبة باللغتين العربية والفرنسية مادة للمقارنة » (صغور أحلام ،2009،صفحة 218)، فاستطاع " عبد المجيد حنون" أن يصوّر الفرنسي في ذات المغاربي سواء ما كتب بلغته أو لغة "الآخر" ، وهو ما كانت ترتكز عليه الصورلوجيا "التنوّع والثّراء" في الارتباط

الذي كان يضع المؤثّر والمتأثّر في خانة قراءة بعضهما ،كما نجد ارتباطا متعاكسا بين " الأنا" و"الآخر " في العمل الذي تحدّث فيه الباحث " عثمان بلميلود " عن " صورة الصّحراء الجزائري في الأدب الفرنسي من 1830 إلى 1930 " مخصّصا من الأدب الفرنسي الأعمال السّردية منه نظرا لما قامت به من كشف لرؤية الفرنسي للصّحراء الجزائرية ،والملاحظ عن هذه الدّراسة أنّها طرقت باب المنهج الأمريكي في الصورائية المقارَنة ، « حيث اعتمد الباحث على دراسة صورة الصّحراء الجزائرية في الأدب الاستشراقي لدى كلّ من الفنان " اتيان دينيه" من خلال كتاباته السّردية ولوحاته الفنيّة ، و" ازابيل ابرهات " من خلال كتاباتها السّردية المسجّلة » (صغور أحلام ،2009، صفحة 22، أمّا "صورة الآخر في الرّواية الجزائرية من سنة 1950م إلى سنة 2010م لعالية زروقي " ففي هذا العمل اختلاف عن سابقه ، ذلك أنّ البحث كان في السنوات الأخيرة التي نعيشها ، ولو كان مثلما أشرنا سابقا الاتّفاق في السّرد وهو مضمون ما ارتبطت به الصورلوجيا ، إلّا أنّ " عالية زروقي " قدّمت أحد أكثر الأعمال كثافة من حيث التطبيق خاصّة ، فصوّرت "الآخر " في " الهنا" في فترة طويلة على مدى ستين سنة كاملة ، من خلال حركية العمل الرّوائي وما تطاير من صور مختلفة عن " الآخر" بكل أشكاله.

ولأنّ هذه الأعمال تناولت السّرد كتطبيق للمنهج الصورلوجي في الأدب المقارن ،فقد جاء تطبيقنا على الشّعر من خلال دراسة صورة الفرنسي في الشّعر الجزائري في فترة ما قبل الاستقلال ،فالشّعر الجزائري لا يقلّ شأنا عن القصّ الذي صوّر الآخر ،وهو ما تأكّد في الصّور الكثيرة التي وُجدت في ذاكرة الشّعراء وانعكست في ديوان الشّعر الجزائري الثّوري ،من ذلك تصوير الآخر الفرنسي بالغرب، يقول محمّد اللقاني بن السّايح:

قلِّب لحاظك وانظرَنْ ما قد جرى واسمعْ رعود النّصر تخترق السّما

فلقد بدا في الشّرق نجم سعوده والغرب جاء مكبّرا ومعظّما (محمّد الهادي الزّاهري، 1926، صفحة33)، وتصويره بالطّاغي ،كما يقول مفدي زكريا:

ثورة تملأ العوالم رعبا وجهاد يذرو **الطّغاة** حصيدا (مفدي زكرياء،2007،ص19) ، وذكر الشّاعر صالح خباشة صورة الفرنسيين كاستعمار ،إذ يقول :

عن **المستعمرين** سلوا الصّحارى فكم مادت بهم أرضا خبارا (صالح خباشة،2007،صفحة 37)

وفي تصوير مختلف عن هذه الصّور جاء تصوير الفرنسي إيجابيا في ظاهره ،سلبيا في حقيقته ،فيه من الحيلة التي استخدمها الشّاعر لمخاطبة الآخر الفرنسي وهو يبعث بالخطاب على لسان وفدٍ جزائري ،ليبيّن أنّ المستعمِر يخلف بالوعد ،وإن كان عند وعده فعليه أن يمنح الاستقلال للجزائر ،يقول محمّد العيد :

يا وفد ذكّر فرنسا عهدا تقادم عهدا

متى تفين بوعد يا **أعذب النّاس** وعدا (محمّد العيد آل خليفة،2010،صفحة 274)

من وجهة نظر الشّاعر الجزائري ،كان يرى الفرنسي بكلّ تفاصيله،ذلك ما كان يوفّره الشّعر له ،فطبيعة الشّعر من حرّية في استخدام الخيال ،والتنوّع العروضي الموسيقي ،يمنحانه توسيعا قي التصوير ،وهو ما وجدناه في الصّور الضّمنية التي دلّت على الآخر الفرنسي ،كما يقول صالح خرفي في فرنسا:

فخذي البريء كأنّه الجاني ،فعذ ر بنيك أنّهم أنكاس (صالح خرفي ،1982،صفحة 14)

ويقول أحمد سحنون لشباب الجزائر:

ولستم بالأسود إذا رضيتم بأن تسطو بأرضكم الذّئاب (أحمد سحنون،2007،صفحة 194)

فيظهر التشبيه في النموذج الأوّل ،والذي يصوّر من خلاله الشّاعر الفرنسيين بالأنكاس ،أمّا في النّموذج الثّاني فهي استعارة السّطو من الفرنسيين وإلصاقه بالذّئاب ،للشّبه الموجود بينهما ،ومنه تصوير الفرنسي بالذّئب.

2 ـ2 ـ المنهج الموضوعاتي :

الموضوعاتية من الميادين التي اعتمدها الدّارس المقارِن ،وهي انتقال المواد الأدبية بين القوميات المختلفة ،وقد ارتبطت بنقل تلك الموضوعات عبر مختلف الأجناس الأدبية«ذهب تاريخ الموضوعات والبواعث بالجانب الأكبر من النّقاش الذي دار حول الأدب المقارن ،فمع نهاية القرن التاسع عشر بلغت الدّراسات المتّصلة بالمأثورات الشّعبية أوجّها،وكان الأدب المقارن في خطاه الأولى..ولكن القرن العشرين جاء بأيديولوجيات جديدة جعلت من الأدب المقارن هدفها المفضّل» (الطّاهر أحمد مكّي ،1987، 329) ،ورغم البداية المتراجعة للمنهج الموضوعاتي في الدّراسات المقارنة ،إلّا أنّه كان فيه من التطوّر والحرّية في طرق عديد الأجناس وحتى المجالات ،فالبداية التاريخية التي شهدها الأدب المقارن عامة أثّرت على سيرورة انتقال المواضيع بحرّية بين الآداب ،والشيء نفسه انطبق على المجال التطبيقي«وإجمالا يمكن القول إنّ محيط العمل الموضوعاتي ضيق إلى حدّ كبير بين المقارنين ،وبخاصة في الموضوعات التاريخية ،لأنّ معناها مرتبط بالمكان الذي وقع فيه الحدث ،وفهمها يحتاج إلى معرفة دقيقة به وبالعصر نفسه ،وإنّما يتّسع مجالها فقط عندما نلغي الخصائص التاريخية ،وتبرز الملامح الإنسانية الخالصة» (الطّاهر أحمد مكّي ،1987،صفحة 342)، ومن بين الأعمال الرّائدة في هذا المجال "موضوعة جان دارك في الأدب العالمي ـ فرنسي ـ إنجليزي ـ ألماني ـ دراسة تيماتولوجية مقارنة من 1429إلى منتصف القرن العشرين" لـ بن عبد الله الأخضر ،وقد كان هذا العمل رائدا في هذا المنهج الذي أراد أن يلم بكلّ تفاصيله« يمكن القول عن هذه الدّراسة إنّها بداية مضيئة تقدّم أكثر من خدمة للباحث في حقل التيماتولوجيا ،ومنهجية البحث فيه،فراح يزاوج بين التطبيق والنّظري في تناغم وانسجام محاولا الأخذ بيد القارئ العربي،وذلك بتقديم صورة واضحة ومبسّطة عن الحقل التيماتولوجي ،والأسّس المنهجية والنّظرية للاشتغال فيه» (صغور أحلام 2009،ص284) ،وكان بعد هذه الدّراسة ،دراسة متمّة لما قدّمه بن عبد الله، وإلمام بإفادة الدّارس في هذه المجالات ،فقد ركّز "بلعالم محمّد" في دراسته"موضوعة يوسف النبيّ في الأدب العالمي ـ يوناني ـ إنجليزي ألماني ـ دراسة تيماتولوجية مقارنة" على الطّابع التطبيقي ،وهو ليس إهمالا للنّظري ،إنّما في محاولة إعادته دخول في روتين لم يكن له ضرورة«وإذا نحن استثنينا المقدّمة النّظرية والمنهجية التي خصّ بها الباحث "بن عبد الله"حقل التيماتولوجيا ،فإنّنا لا نكاد نعثر على أيّة دراسة بعده أولت عنايتها إلى الجانب النّظري ،فقد نوقشت رسائل بعده أقل شمولية ،وألصقت بالطّابع التّطبيقي مثلما هو الحال في دراسة الباحث الجزائري "بلعالم محمّد" »(صغور أحلام،2009،ص285)

على إثر هذه الموضوعات التي استخدمها الباحثون في بحوثهم في هذا المنهاج،نجد تغيّرا في استخدام الشّخصيات ،وفي هذا التغيّر ،إثراء للمادة المعرفية لهذا المجال ،وتوسيع لرقعة الدّراسات التي مسّت جميع الجوانب، الأدبية والدّينية والتاريخية وحتّى الأسطورية ،مثلما عملت الباحثة "نسيمة مسلاتي عيلان في "أسطورة بيجماليون في المسرح الفرنسي والإنجليزي والعربي عند "جان جاك روسو"و"برنارد شو" و"توفيق الحكيم " .

أمّا ما قدمناه في هذا الإطار فهو دراسة لموضوعين مختلفين في مجال الموضوعاتية المقارنة ارتبط أحدهما بأبوليوس والحمار الذّهبي ،أمّا الآخر فتناول شخصية الأمير عبد القادر عند الكتاب الإنجليز والفرنسيين ،فرواية أبوليوس "الحمار الذّهبي" اتُّخذَ لها عديد الترجمات والقراءات،التي كانت تتشابه في ظاهرها وتتكامل في مضامينها،وكان صاحبها أشهر من كلّ تعريف نظرا للمكانة التي صنعها لنفسه ،فيكفي أيّ كتاب يحاكي فكرة التاريخ والأسطورة إلا ويعرّج على ماهية هذا الرّجل«وقد أطلقت على روايته الغرائبية "الحمار الذّهبي"تسميات عدّة من بينها: (المسوخles métamorphoses)، و(قصّة المسخ)كما عند حميد الحمداني ،و(الحمار الذّهبي) أو (التحوّلات) كما عند عمار الجلاصي ،أو (الحمار الذّهبي)فحسب كما لدى أبو العيد دودو،أو (تحوّلات الجحش الذّهبي)كما عند فهمي علي خشيم،وقد تسمّى كذلك رواية(الحمار الوردي)» (جميل حمداوي،2020 ،صفحة 14) ،اصطبغت الرّواية في أغلبها بالحديث عن ملحمة التحويل التي تعتري الإنسان ،وهي العملية التي لم تمسّ الكاتب كبطل في حدّ ذاته ،وإنّما حتى في وجود شخصيات أخرى مسّها التحوّل ،أو أصابها المسخ« ظهرت قصّة أبوليوس في مسخ الإنسان إلى حيوان ،ثمّ عودته إلى حالته الأولى في أواخر القرن الأوّل بعد الميلاد ،أي حوالي 170م في مدينة قرطاج وراوي هذه القصّة هو **لوسيان** الذي حوّل البطل لوكسيوس إلى حمار .. وتتميّز رواية الحمار الذّهبي بكونها ذات طابع ملحمي وفانطاستيكي غريب ،حيث تعتمد على فكرة المسخ وتحويل الكائن البشري إلى حيوانات»(جميل حمداوي،2020،صفحة 16)، واستخدام الشّخصية المحورية في هذه الرّواية كموضوع وجد من خلال الرّواية نفسها التي اعتمد فيها صاحبها على ما قرأه من الإرث اليوناني القديم الذي سبق له وأن استخدم الحيوانات كأساطير في مختلف الأعمال الأدبية والفلسفية خاصة،لأنّ هذه الأخيرة كانت من المنتوجات التي انبنى عليها الفن والثّقافة اليونانيّيْن«إنّ ظاهرة التلقّي أو الاستقبال تبدو ظاهرة مفتوحة ومتسلسلة بين كثير من النّصوص الإبداعية ،والبحث في مسألة التلقّي بين نصين إبداعيين يبدو غير كاف أحيانا ،ونستطيع في هذا السّياق أن نسجّل استقبالات أبوليوس لبعض الموضوعات الأسطورية اليونانية» (عبد النّاصر مباركية، 2005،2006،صفحة 193) ،ومن بين الأعمال التي ذكرها الدكتور"عبد النّاصر مباركية "أسطورة جوبيتر/مارس/الشّاعر هوميروس/قصّة انتحار سقراط/،ويظهر صاحب رواية "الحمار الذّهبي" من خلال استخدامه لتلك الموضوعات واعتماده عليها في عمله،موسوعية ثقافته وحسن اطّلاعه على مجال الآداب السّابقة له ،وكذا طريقة توظيفها ،وفي ظلّ هذا اعتُمدت ترجمت هذه الرّواية وشخصياتها كموضوع من مختلف الأجناس الأدبية ،فيمكن أن نعتبر أيّ إبداع تناول عملية التحوّل في محاكاة الحيوان والحمار خاصة ،يتقاطع مع موضوع "أبوليوس وحماره الذّهبي" ،ومن ذلك ما نجده مع هؤلاء الذين تحوّلوا بفعل أعمالهم إلى الأدب العالمي.فرانتس كافكا في روايته"التحوّل " يستوحي ذات الفكرة ،ويأخذ موضوع وضع الجسد وامتزاجه بين عقل إنسان وجسد حيوان مثلما حدث مع الحمار الذّهبي وأبوليوس«أمّا قصّة التّحوّل فهي تقدّم للقارئ حالة من حالات الفشل تؤدي إلى الموت ،وهي قصّة تجسّد أزمة وجود ..ويتمثّل ذلك الانقسام في بقاء الذّات "الحقيقة المنسحبة في عجز من المواجهة "في البيت على هيئة حشرة هائلة الحجم تسترخي في الفراش ،بينما الجسد الذي يرتدي ملابس تلكّ "الذّات"أي حرفيا الواجهة الخارجية لتلك "الذّات"تترنّح خارجة إلى اضطراب الدّنيا وتقوم بالعمل كبائع متجوّل» (فرانتس كافكا ،2015،ص9)، فهذا التحوّل الذي أصاب البطل"جريجور سامسا"بطل هذه

الرّواية وتغيّره إلى هيئة فراشة كبيرة الحجم ،أدخله في عالم من الصّراع مع من حوله من النّاس ومع ذاته على إثر عجزه عن مشاكلة طباع التحوّل ،ورفضه رؤية النّاس له على تلك الهيئة، ورفضهم هم أيضا التعايش معه . حتى من القريبين «صرخت شقيقة جريجور قائلة :"يجب عليه أن يذهب ،هذا هو الحلّ الوحيد يا أبي ،يجب عليك فقط أن تحاول التخلّص من فكرة أنّ هذا هو جريجور .. لو أنّ هذا هو جريجور لكان قد أدرك منذ وقت طويل أنّ البشر لا يمكنهم أن يعيشوا مع مثل هذا المخلوق ،ولكان قد رحل بعيدا عن نفسه ،ولن يكون لنا أخ حينئذ ،إلا أنّنا سنتمكّن من مواصلة الحبّ» (فرانتس كافكا ،2015،ص81) ،إنّ هذه الثّنائية التي جمعت بين التحوّل والحب نفسها كموضوع اعتمده أبوليوس ،لكنّ العصر والزّمن يختلفان،فكان اعتماد صاحب الحمار الذّهبي على الآلهة والسّحر لتخليصه ممّا حدث له من مسخ ،بينما اعتمد "كافكا" على الطبّ وتطوّره كسبيل لعودة البطل إلى طبيعته.

وفيما يتعلّق بموضوع الأمير عبد القادر ،فإنّ تناول أيّ شخصية في الآداب والفنون يعتمد على أهمية تلك الشّخصية ،والدّافع الذي من خلاله يطرق الكاتب باب تلك الشّخصية قيتناولها لتصبح فيما بعد موضوعه المميّز ،و هو ما كان من نصيب "الأمير عبد القادر "الذي جعله"هنري تشرشل " موضوعا لكتابه ،أمّا الجانب الأوّل فلا يكاد القرن التاسع ينقضي إلا والأمير عبد القادر شخصية القرن بامتياز ،أمّا الثّاني فيعود إلى علاقة هذه الشّخصية بالكاتب ، فوضع "تشرشل" في كتابه ما يرتبط بالأمير من مختلف الجوانب ،فتناول حياته "من مولده، نشأته، تعلّمه،شكله ، مواهبه..."فلم يكن للكاتب أن يهمل شيئا في هذا المقام، وكانت نظرة الإعجاب تظهر في هذا الوصف«إنّ ملامحه التي كانت من أصفى الطّابع الكلاسيكي، كانت جذّابة لوسامته المعبّرة التي كادت تكون جمالا أنثويا، فأنفه الذي يتوسّط وجهه في حجم وسطى وفي شكل رائع . كان بين الأنف الإغريقي والروماني . وشفتاه المنحوتتان ..بينما تشعّ عينان صافيتان في لون البندق تحت جبهة عريضة في بياض الرّخام.. »(شارل هنري تشرشل ،1974، صفحة 42.40) ،إضافة إلى الجمال الفيزيولوجي ، يضيف "تشرشل" الجمال الدّاخلي للرّجل ،من حسن بديهةّ ،إلى تمسّكه بهدف تغيير الذّات عبر الأخذ بأسباب السّعي نحو التحصيل، وهو ما جعل أفكاره تمزج بين الجانبين الدّيني والفكري ،وعلى هذا بدأ يظهر أثر الشّخصية المكتملة حين دخل الاستعمار وبدأ الغزو ، فقد أظهر الكاتب صورة الأمير بشجاعة وفروسية وإعجاب دائما، لدرجة أنّ ذلك الإعجاب كان يتخطّى الكاتب إلى غيره في ذات الحديث«وخلال مناسبات كثيرة مليئة بالخطورة والمبادرة ،استعمل فيها عبد القادر سيفه البكر ، أدّت شجاعته وفروسيته لا إلى الثّناء عليه فقط بل إلى الإعجاب المنقطع النّظير به، فقد بدأ العرب ينظرون بتقديس خرافي إلى رجل يتمتّع بشخصية وسيمة ويتقدّم بلا خوف دون أن يلحقه أذى حيثما هدّد الخطر»(شارل هنري تشرشل ،1974، صفحة 55)

وتناوله عند الكتّاب الفرنسيين برونو إتيين في كتابه "عبد القادر الجزائري" وقد كانت قراءة" إتيين " للأمير عبد القادر كموضوع في كتابه أكثر نضجا وموسوعية من الإنجليز،قد يكون السّبب العلاقة التي جمعت الطرفين ، والمعرفة الحقيقية للكاتب بموضوعه، فحين كان يتحدّث ويصف وكأنّه يعرّف بنفسه، من ميلاد الرّجل، نشأته، تعلّمه،بناؤه للدّولة ،مواجهته للفرنسيين ،تصوّفه،نفيه حتى وفاته، فحين يذكر ظروف معاهدة دي ميشيل ،يجعل من الأمير عبد القادر بطلا في كلّ وصف يصفه به«كان عبد القادر يدور في خيمته وحوله كتبته وخلفاؤه ،فقد

جعل نظام الحصار الذي فرضه على الفرنسيين شروط حياتهم صعبة ،وهو يعرف أنّ كثيرين في فرنسة يعارضون احتلال الجزائر لأنّها عملية مكلّفة،كما أنّه لم يحرم نفسه من مناوشة اللّجنة البرلمانية المتجوّلة في البلاد» (برونو إتيين،1997،صفحة 173)، فنجد أنّ الكاتب وهو فرنسي ،يقف مع الحقّ ويصف ما حدث وصفا حقيقيا ،وهو ما يبرّر استقامته في استخدامه للأمير كموضوع ،وتناوله لحياته بتفاصيلها ،حتى عندما يذكر تصّوفه واعتزاله ،فغنّه يتحدّث المتحدّث المجرّب الممارس«تشكّل العزلة رغبة في الاستمرار برفقة المعلّم ،من الآن فصاعدا مشروع عبد القادر الوحيد، لكن دون أن ينقطع كلّيا عن العالم ،ومن هنا تفرّد ممارسة الأمير العملية،فهو لا يكتفي بأن يغدو ناسكا إنّما يستمر من أجل انسجام التوازن ،بعد تلك العزلة ،في العيش حياة عريضة كإنسان اجتماعي» (برونو إتيين،1997،صفحة 337)، والكِتَابُ على طوله يسري بهذا الشّكل حشد للكثير من المعلومات ،معالجة واسعة للأمير عبد القادر كموضوع برؤية لأحد الفرنسيين الذين توفّقوا في هذا السّياق ،رغم نظرة التحريف التي طالت الشّخصية في بعض محطّات الكتاب منها اعتبار الأمير عبد القادر ماسونيا«إنّ الماسونية الحرّة التي يقوم مبدؤها على الإيمان بالله وخلود الرّوح ..لا يمكنها إلّا أن تشهد ببالغ التأثّر العبرة الكبرى التي تعطيها للعالم وهي تعترف بك وتعتبرك واحدا من أبنائها..وأنت الرّجل الذي مارس ،بدون تفاخر وبإلهام أولّي ،شعارها السّامي "الواحد للكلّ"» (برونو إتيين،1997،صفحة 349)،الكثير من الأحداث على كثافتها شهدت من التزييف ،حسب ما يقتضيه الحال من خلال تناول الكاتب الفرنسي للأمير ،والعلاقة الفرنسية الجزائرية هي التي فرضت هذه الرؤية فالأمير كان واقفا ضدّ الاستعمار بكلّ خططه وقوّته ما جعلهم يفشلون في المواجهة التي تحوّلت حتى في كتاباتهم إلى فشل.

خاتمة:

لقد كان الأدب المقارن في الجزائر نقطة تحوّل في الدّراسات الأدبية والنّقدية ،جاء هذا بفضل المجهودات التي بذلها رواد هذا الأدب ومن جاء بعدهم ،وهو ما ظهر من خلال هذا البحث الذي ساير التطوّرات التي حدثت في الدّراسات النّظرية والتطبيقية للأدب المقارن في الجزائر .

كانت الجزائر من بين الدّول التي احتوت الدّراسات المقارنة ،فأضافت لمستها على مختلف المناهج التي اتّبعها الباحث في هذا الإطار ،فوُجدت الترجمة والرّحلة والتأثّر والتأثير ،والصّورائية والموضوعاتية.

كان اهتمام الدّارس الجزائري بمجال الصّورائية لأنّه كان منهجا مهمّا في التعرّف على عادات الأمم وآدابها وعلومها وعاداتها وتقاليدها وتاريخها، كما أنّه دافع لتطوير الآداب القومية في احتكاكها مع بعضها ،وكان للموضوعاتية الشّأن نفسه.

تميّزت الدّراسات التطبيقية عبر علم الصّورة الأدبية بتناول موضوعات سردية خالصة ،وقد يكون السّبب هو طبيعة الدّرس التطبيقي الأوّل من جهة ،ومن جهة أخرى لسهولة السّرد في لغته ،ورتابة استخلاص الصّور منه، وبتطبيقنا على الشّعر أكملنا الحلقة الناقصة للمنهج الصورلوجي في الأدب المقارن ،وبين هذا وذاك كانت الصّور متباينة ،فرضتها طبيعة الرؤية والعلاقة بين الأنا والآخر ،فنظرة الألمان للجزائر كان فيها من الإعجاب ما فيها ،أمّا تصوير الأديب الجزائري للآخر الفرنسي فاختلف بين الرّواية والشّعر لخصوصية كلّ لون أدبي ،رغم هذا كان

التشابه واضحا في صورة الفرنسي في الرّواية أو الشّعر ،فصورة الفرنسي مستعمِراً ،ظلّت تلازم مخيّلة الأديب الجزائري .

اعْتُبِر الموضوع أهمّ عنصر في المنهج الموضوعاتي المقارن ،فتنوع تناول الموضوعات من شخصيات وأماكن حقيقية وأسطورية ،كان أغلبها من كتب تاريخية وروايات ،وممّا وجد في هذا البحث ،دراسة الأمير عبد القادر عند الكتّاب الإنجليز والفرنسيين وقد استخلصنا الفروقات التي حدثت بين الدّراستين ،كان أهمّها الموضوعية التي وُجدت عند الإنجليز في رؤيتهم للأمير ،وغيابها عند الفرنسيين.

– قائمة المراجع:

أحمد سحنون،2007،الدّيوان،منشورات الحبر،الجزائر

برونو إتيين،1997،الأمير عبد القادر الجزائري،ت . المهندس ميشيل خوري،المؤسّسة الوطنية للاتّصال والنّشر ،لبنان

جميل حمداوي،2020، الحمار الذّهبي لأفولاي الأمازيغي ، دار الرّيف للطّبع والنّشر الإلكتروني،ط1،المغرب

دانييل هنري باجو،1997،الأدب العام والمقارن،ت . غسّان السّيد،منشورات اتّحاد الكتّاب العرب،دمشق . سوريا.

زهرة مزوني ،2016، دراسة الصورة في الأدب المقارن ، مجلة الباحث ،العدد 16،جامعة ورقلة

سيزر دومينيغيز. هاون سوزي . داريو فيلانويفا،2017،تقديم الأدب المقارن، ت . فؤاد عبد المطّلب،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت

شارل هنري تشرشل ،1974، ت . أبو القاسم سعد الله،الدّار التونسية للنشر، تونس

صغور أحلام ،2008 ـ 2009،واقع الدّراسات المقارنة في المغرب العربي ،جامعة وهران.

صالح خرفي ،1982،أطلس المعجزات،الشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع،الجزائر

صالح خباشة،2007،الرّوابي الحمر، منشورات أرتيستيك،الجزائر،ط 2، الجزائر

الطّاهر أحمد مكّي ،1987،الأدب المقارن،دار المعارف،مصر

عبد المجيد حنون،2004، أبو العيد دودو والأدب المقارن في الجزائر / مجلة اللغة العربية ، المجلس الأعلى للغة العربية ،الجزائر

عبد النّاصر مباركية، 2005ـ2006، استراتيجية القارئ في البنية النّصية "الرّواية نموذجا"،كلية الآداب واللغات ،جامعة قسنطينة

فرانتس كافكا ،2015،التحوّل،ت . مبارك وساط،منشورات الجمل،ط1،بيروت . لبنان.

محمّد غنيمي هلال ،النّقد التطبيقي والمقارن،نهضة مصر للطباعة والنّشر،مصر

محمّد غنيمي هلال، 2008،الأدب المقارن، نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتوزيع،ط9،مصر

محمّد الهادي الزّاهري، 1926، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ،ج1،المطبعة التونسية،تونس.

مفدي زكرياء،2007،اللهب المقدّس،المؤسّسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر
محمّد العيد آل خليفة،2010،الدّيوان،دار الهدى ،الجزائر